

شمس الهدى والإيمان



زرياب

2

علماء العرب



الهدى والإيمان

علماء العرب

1 - 16 جزءاً

زرياب

تأليف

محمد كمال

زرياب

الغلام الأسود

زرياب .. هذه الكلمة التي تعني بالفارسية : الذهب الخالص أصبحت فيما بعد لقباً لذلك الموسيقيّ البارِع ، الذي تردّدت ألحائه في جنّات بغداد ، عاصمة الفن والحضارة والعلم في العصر العباسي ، ثم طارت هذه الألحان محلّقة في الآفاق ، حتى كان لها صدّى رقيقٌ يلامس أسماع أهل الأندلس ، فيطربون وينتشون .

إنه أبو الحسن ، عليّ بن نافع ، ذلك الصبيّ الأسود اللون ، الذي ولد حوالي سنة 160 هـ - 777 م ، فتربى في أحضان الفاقة والعُدْم ، ونام فوق بساط البؤس والحرمان ، إذ كان الخليفة المهديّ قد اشتراه وجعله من مواليه ، فأصبح تابعاً للسادة والأشراف ، يخدمهم في الليالي الطّوال ، وهو صابر محتسب ، ويمتعهم بين الحين والحين بعذوبة لفظه ورقّة شعوره ، وما في صوته من نبرة ساحرة ونغمة آسرة ، ثم توفي المهديّ وهذا الطفل لم يتجاوز التاسعة من عمره ، إلا أنه كان قد ملّك حرّيّته ، لما توسّم فيه الخليفة من علامات الذكاء وفصاحة اللسان .



بغداد

كانت بغداد في القرن الثاني الهجري قد توطدت فيها دعائم الخلافة العباسية ، وانتقل الناس من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، فعمّ الترف

والنعيم ، وازدهت المدينة بالقصور الفاخرة ، والجنان الغناء ، والساحات
الواسعة ، وانتشرت فيها الصناعات اليدوية الفريدة والحرف المتطورة ، ففي
كل حيّ مجلس للعلماء ، وملتقى للشعراء ، ومنتدى لأهل الفن والطرب
والغناء ، فكثر المغنون والعازفون من الرجال والنساء ، حتى ظهر بينهم
أساتذة أتقنوا صناعة الطرب ، فراحوا يدرّبون الجوارى على فنون الغناء
ويعلموهنّ العزف على الآلات الموسيقية المتنوعة ، إلى جانب تهذيب نفوسهن
بألوان الشعر والأدب حتى تتمّ بهنّ نشوة المجالس وبهجة المحافل .
وكان مما ساعد على هذه النهضة الفنية عناية الخلفاء والولاة بهؤلاء
المغنين والمغنيات ، فكان في قصر الرشيد ما يقرب من ألف جارية يتسابقن
إلى إتقان هذه الصنعة والمهارة فيها .

وكان زرياب لا يزال ربيب هذه القصور الزاهية والمجتمع الرفيع ،
تنمو حواسّه وتتيقّظ ملكأته ، ويتعلم مما حوله رقة الذوق ونعومة السلوك ،
ويصقل ذائته بروائع الشعر وبدائع الأدب .

على مقاعد الدرس

تلقى زرياب تعليمه الأوّل في الغناء والعزف على يدَي إبراهيم الموصلي
، الذي كان سيّد المعلمين في بغداد ، يقصده طلاب هذه الحرفة ، فيأخذون
عنه أصول الطرب والغناء ، وأساليب العزف على الآلات .

وكان من أنجب تلامذة إبراهيم وأكثرهم استفادة منه ابنه إسحاق الموصلي ، فلما مات إبراهيم ورث إسحاق الشهرة والمجد ، وتربع على كرسي التعليم خلفاً لأبيه ، فكان عالماً فقيهاً وشاعراً أديباً ، يستقبله الخلفاء ويذنون من مجالسهم ، لِمَا في أحاديثه من ظَرْف ودُعابة ، وَلِمَا كان يحفظ من أخبار القدماء وأقوال الحكماء والشعراء ، فضلاً عن أنه كان مغنياً بارعاً ، وعازفاً ماهراً ، وملحناً مجيداً ، فكانت صناعته مُحْكَمَة الأصول ، ونغمته عجيبة الترتيب ، وقِسْمَتُه معدلة الأوزان ، يجمع قوة الطبع إلى سهولة المسلك ، فيخرج من شِدَّة إلى لِين ، ومن لِين إلى شِدَّة ، فضبط الأوزان الشرقية ، وحدد المقامات .

وكان زرياب يلازمه ملازمة الظل ، وينهل من علومه وفنونه ، فيلتقط الحروف التقاطاً حسناً ، ويحفظ النغمات حفظاً متقناً ، فتبَّت في ذاكرته كما ثبت الصُّورُ على شاشة بيضاء صافية ، حتى قبضت أنامله الفتية على أوتار العود ، فراح يداعب نغماتها الرواقص ، تتجاوب مع صوته العذب ، فتَهْتَرُّ له الأفئدة طرباً ، وتمتلئ نشوة وحُجوراً .

الامتحان الخطير

عندما بلغ زرياب العشرين من عمره كان قد أتقن معظم قواعد الفن الموسيقي وأصوله ، وأخذ ذوقه الموسيقي ينتقل به من دور الطالب المتلقي إلى دور المنتج المبدع ، فهاهم أولاء السُّمَّارُ في أروقة بغداد يُصْغَوْنَ إلى غِنائه

وعزفه ، فیسحر آذانهم حُسْنُ أدائه ، وقدرته على التقل من لحن إلى لحن ،
ومن مقام إلى مقام ، وهو لا ينكر في ذلك كله فضل أستاذه إسحاق الموصلي
عليه ، وإخلاصه في تعليمه وتثقيفه .. ثم جاء الامتحان الخطير .

فقد دعا الخليفة هارون الرشيد إلى حفل يقام في بلاطه وطلب من
إسحاق الموصلي الذي كان سيد المحافل آنذاك أن يحضر معه مَنْ يثق بهم من
العازفين الجدد والمغنين الناشئين ، فوق اختيار إسحاق على تلميذه النجيب
زرياب .

غير أن زرياب ، مع قُيُوبه من المثل بين يدي الخليفة ، غمره السرور
العارم ، لأنه إذا تحقق له النجاح في هذا الحفل ، فإن آفاق الشهرة والمجد
سوف تمتد أمامه ، وسيبدأ بعدها صفحة جديدة من حياته .

والتأم مجلس الخليفة ، واصطف العازفون والمغنون ينتظرون الإشارة
ببدء الحفل ، وملتفت الخليفة فتقع عينه على زرياب ، هذا الشاب الناشئ
الذي لم يسبق له أن رآه من قبل ، فدعاه إليه ، وأخذ يمتحنه ويسأله عن فن
الغناء وأصوله ، ليستوثق منه ويتحقق من معلوماته ، فإذا بزرياب يتماسك ،
ويضبط نفسه ، فينطلق لسانه بفصاحة نادرة وبديهة حاضرة ، ويجب الخليفة
قائلاً :

- أحسن منه ما يُحسِنه الناس ، وأكثر ما أحسنه مما لا يُحسِنونه ،
ولا يحسن إلا عندك ، ولا يُدخِرُ إلا لك ، فإن أدلت غنيَّتكَ ما لم تسمعه
أذن قبلك .

فتعاطمت الدهشة في عيني الخليفة مما سمع ومما رأى ، وأمر على الفور
ياحضر عود أستاذة إسحاق الموصلي ليعزف عليه ، ولكن زرياب أبي أن



يتناول العود ، وقال للخليفة :
- لي عودِي ، نَحْتُهُ بيدي ، وأرهفْتُهُ بإحكامي ، ولا أرتضي غيره .

فاستجاب الرشيد لما طلب زرياب ، وسمح له أن يُخرج عودَهُ ،
 وسأله : ما منعك أن تستعمل عودَ أستاذك ؟
 فأجاب زرياب بكل ثقة واعتدادٍ بالنفس :
 - إن كان مولاي يرغبُ في غناءِ أستاذي غنَّيته بعوده ، وإن كان
 يرغب في غنائي فلا بُدَّ لي من عودي .
 فنظر الرشيد إلى العودَين ، وقال مستغرباً :
 - ما أراهما إلا واحداً ! فأجابه زرياب :
 - صدقتَ يا مولاي ، ولا يؤدِّي النظرُ إلى غير ذلك ، ولكنَّ عودي ،
 وإن كان في قدرٍ حجمِ عودِهِ ، ومن جنسِ خشبه ، فهو يقعُ من وزنه في
 الثُّلث أو نحوهِ ، وأوتاري من حريرٍ لم يُغسلْ بماءٍ ساخن يُكسِبُها أنوثَةً
 ورخاوةً .
 ثم اندفع زريابُ يغني بصوته الرخيم :
 يا أيها الملكُ الميمونُ طائرُهُ هارونُ راحَ إليك الناسُ وابتكروا
 فطرب الرشيدُ أيما طربٍ ، وأمرَ إسحاقَ برعايةِ زريابَ والعناية به .

واشتعلت الغيرةُ ..

خرجَ زريابُ من مجلسِ الخليفةِ فرحاً مستبشراً ، يحملُ في طَيَّاتِ نفسه
 آمالاً بيضاً وأحلاماً عذاباً ، وخرجَ إسحاقُ مغموماً مُطرقاً ، والغيرةُ العمياءُ

تلدغ فؤاده ، وتفتت كبده ، فلما أصبحا في بعض الطريق ، التفت إسحاق إلى تلميذه زرياب وقال له :

- (إن الحسد أقدم الأذواء ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وغلو طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فإذا أنا قد أتيت نفسي من مكمنها يادنائك ، وعن قليل تسقط منزلي وترتقي أنت فوقي ، وهذا ما لا أصاحبك عليه ، ولو أنك ولدي ، ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ، وليكن في ذلك ما كان ، فتخير في اثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عني إلى الأرض العريضة ، لا أسمع لك خبراً بعد أن تُعطيني على ذلك الأيمان الموثقة ، وأهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تُقيم على كرهى ورغمى ، مستهدفاً لسهامي ، فإني لا أبقي عليك ، ولا أدعُ اغتيالكَ ، باذلاً في ذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك) .

الفرار إلى القيروان

وقف زرياب حائر القلب ، مشئت الذهن ، مما سمع من كلام أستاذه وتهديده إيّاه ، فما أحراه أن يجهز نفسه للهرب ، قبل أن يستفحل الأمر وتُعظم المصيبة ، فأرض الله واسعة (وكل مكان يُنبِت العز طيب) .

خرج زرياب من بغداد متخفياً يستره الليل ، وسارت راحلته تطوي القفار وتعبر الأنهار ، ويلاقى هو وزوجته وأولاده ألواناً من المصاعب

والمشاق ، فمرَّ بسورية ، وعرج على مصر ، ثم عبر البلاد الليبية إلى أن وصل القيروان ، مدينة الفن والعلم والعُمران ، فاستقبله أهلها خير استقبال ، ورحَّبوا به أجمل ترحيب . وما مضى على إقامته سنوات قليلة حتى أشاع في البلاد نهضة فنية غنائية ، كان من ثمراتها أن مال الناس إلى الاشتغال بالموسيقا والغناء وأسَّسوا حياً خاصاً لذلك ، سموه (الحيّ الزريابي) .

في ربوع الأندلس

ما فتئت الأندلس منذ أن أسَّسها عبد الرحمن الداخل تنمو وتزدهر ، ويستقر ملكُها ، ويكثر عُمرانُها ، حتى غدت أجمل بقاع الدنيا جناناً ، وأعزَّها سلطاناً ، فاتسعت فيها حلقات العلم ، وكثرت مجالسُ الفن ، وعاش الناس في ربوعها في رَغَدٍ وهَناءٍ وطيب عيشٍ . فكان الحُكَّامُ فيها يستقدمون من المشرق كلَّ نابغةٍ في الأدب أو العلم أو الفن ، يأخذون عنه ، ويستزيدون من فضله .

وكانت شهرة زرياب قد بلغت مسامعهم ، فطفقوا يتلهفون إلى لقائه ، ويتوقون إلى سماعه . ففي عام 206 هـ وصل إلى القيروان منصورُ المغني رسولاً من الخليفة الحُكَمِ بن هشام ، يدعو زرياب إلى زيارة قرطبة ، والمُثول بين يدي الخليفة .

سُرَّ زيابُ بهذه الدعوة سُروراً بالغاً ، فانطلق بصحبة منصور ، وكلُّهُ أملٌ في أن تطأ قدماه تلك الجزيرة الخضراء ، حيث الطبيعة والفنُّ والجمالُ .



ولكنه فُوجيء قبل وصوله بموت الخليفة ، وتولَّى ابنه عبد الرحمن بن الحَكَم
أُمُورَ الخلافة . فاغتمَّ لذلك غمًّا شديدًا ، وهمَّ بالعودة إلى القيروان ، لولا أن
بلغه أن الخليفة الجديد متشوّقٌ للقاءه ، وأنه بعث إلى نَوَّابه في المدن التي
سيمر بها زرياب يوصيهم بإكرامه والاحتفال به .

ولما وصل زريابُ قرطبةَ خرجَ عبدُ الرحمنِ بنُ الحَكَمِ نفسه ، ومعه حاشيته يستقبلون هذا المطربَ البارِعَ والعاظفَ المُجيدَ . وبعد أيامٍ من استقراره في قرطبة ، خصص له الخليفةُ مُرتباً قدره مئتا دينارٍ في الشهر ، وقرَّر له ثلاثة آلاف دينارٍ في كلِّ من العيدين ، بالإضافة إلى الهباتِ والهدايا السنية ، والدارِ الواسعةِ التي هَيَّأت فيها كلُّ وسائلِ الراحة والرفاهية . وهكذا غدا زريابُ سيِّدَ الطرب والغناء في مجلسِ الخليفة ، يُنشد في بلاطه كلَّ يومٍ لحناً جديداً أو مقاماً مبتكراً ، إذ كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعةٍ بألحانها وأوزانها ، يؤدِّيها بذوقه الخاصِّ وقتَه الرفيع .

المعهد الموسيقي

ليس عجيباً أن يتصدَّرَ زريابُ المجالسَ والمنتديات ، ويتقدم على غيره من المغنين والعاظفين ، وأن يُهرِّعَ أهلَ الطرب والمولعون بالغناء إلى الاستمتاع بصوته الساحر ، والإصغاء إلى عزفه المتميز . وليس عجيباً أيضاً أن يُنشِئَ زريابُ في الأندلسَ معهداً موسيقياً ينتسب إليه أصحابُ المواهبِ الفنية الذين يريدون أن يُشبعوا ميولَهم الفنية ، وهم يحلُمون بالمركز الذي يحتله أستاذهم زرياب . فلقد أحدثَ زريابُ في الأندلسَ أسلوباً مبتكراً في تعليم الغناء وتلقين الألحان ، وَفَّقَ مِنْهَجَ تربويٍّ يعتمدُ على ثلاثِ مراحلٍ : ففي المرحلة الأولى يعلِّم تلامذته الإيقاعَ في قراءة شعر الأغنية الملحَّنة ،



فيضربُ التلميذُ على الدَّفِّ ، حتى يُتقنَ زمنَ الإيقاع وحركاته . وفي المرحلة الثانية يدرَّبُهم على اللحن الأساسي في شكله البسيط غير المعقد . وفي المرحلة الثالثة يُعلِّمهم ترديدَ الصوتِ وزخرفة الغناء ، وكيفية التعبير عن

المعاني بالصوت . حتى إذا أتقن التلميذ هذه المراحل أصبح مهيباً للمشاركة في شتى الاحتفالات .

كما تضمن منهج الدراسة في هذا المعهد تعليم مختلف أنواع العزف والغناء والتلحين والشعر والرقص ، مما كان له أكبر الأثر في النهوض بالموسيقا والشعر في بلاد الأندلس ، بل في الكثير من البلاد الأوروبية . وقد عمل زرياب على تنشيط الثقافة الفنية في الأندلس ، إذ أرسل في طلب مجموعة من المغنيات اللاتي جرى تخرجهن على أيدي أعلام الغناء في الحجاز والشام وبغداد ، وعندما وصلت المغنيات من المدينة المنورة ابنتي الخليفة هن داراً خاصة سميت (دار المدينيات) .

ويقال إن أحد المجالس الأندلسية اشترك فيه مئتان من المغنين والمغنيات ، يضربون بمختلف الآلات من عودان وطنابير ومزامير . وقد سجل التاريخ لزرياب أنه أدخل الوتر الخامس على أوتار العود ، وجعله باللون الأحمر ، وهو يقوم مقام النفس للجسد ، بعد أن كانت الأربعة الأولى تمثل الطبائع البشرية الأربع .

كما سجل له أنه أول من جعل مضرب العود من قوادم النسر بعد أن كانت من أعواد الخشب .

النجم الاجتماعي اللامع

لقد نظرَ الناسُ إلى زريابَ على أنه سفيرٌ من سفراء الحضارة والمدنية إلى الأندلس ، فأخذوا يقلّدونه في ملبسه ومأكله وسائر عاداته ، ويتعلمون منه اللياقة والذوق وحُسن التصرف في كثير من الشؤون .

فقد تعلّموا منه فنَّ اختيارِ الملابس لكل فصلٍ من فصول السنة ، فكان يرتدي الأقمشة الخفيفة ذات الألوان الزاهية في فصل الربيع ، والأثواب البيضاء الفضفاضة في الصيف ، ومعاطف الفراء وأغطية الرأس في الشتاء .

وتعلّموا منه وضعَ غطاءٍ ناصع البياض على موائد الطعام ، واستخدام الأكواب المصنوعة من الزجاج عوضاً عن أواني الذهب .

وتعلّموا منه أصنافاً متنوعة من الأطعمة الشهية ، ومن بينها (الزلاية) التي يقال إنها تحريف عن (الزريابية) ، وهي رقائق من العجين تُقلى بالسمن ، ثم يرش عليها مدقوق السكر والقرفة .

وكان الرجال والنساء في الأندلس يرسلون شَعْرَهم مفروقاً وسطاً الجبين ، هابطاً على الحاجبين والصُّدُغَيْنِ ، فلما رأوا زريابَ يمشط شَعْرَهُ ويقصّره ويلُمُّه إلى وراء أُذنه ، اقتدوا به وساروا على منواله .

وفي عام 230 هـ - 845 م ، سكت هذا البلبلُ الغريد عن الغناء ، وصعدت رُوحُه إلى بارئها ، الخالق العظيم ، بعد أن أقام للموسيقا الأندلسية صرخها الشامخ ومجدّها الخالد .

علماء العرب

سلسلة قصصية تروي الجانب الهام من حياة علماء العرب الذين كانوا وما زالوا مجال العزة والفخار.



- 1 - جابر بن حيان
- 2 - زرياب
- 3 - الكندي
- 4 - الجاحظ
- 5 - أبو بكر الرازي
- 6 - الفارابي
- 7 - ابن سينا
- 8 - الحسن بن الهيثم
- 9 - البيروني
- 10 - ياقوت الحموي
- 11 - الشريف الإدريسي
- 12 - ابن الأثير
- 13 - ابن بطوطة
- 14 - ابن خلدون
- 15 - الجبرتي
- 16 - عبد الرحمن الكواكبي

تأليف: محمد كمال
الغلاف: هيثم فرحات

K1G1-16

جميع الحقوق محفوظة لدى دار ربيع للنشر ، لا يجوز الطبع أو التوزيع
أو التصوير بأي شكل أو طريقة إلا بموافقة خطية من مالك الحقوق .
تم نشرها من قبل دار ربيع للنشر - حلب - سوريا

RP© 2005 Rabie Children Books

All rights reserved , and no part of this publication may be
reproduced or transmitted in any form or by any means , electronic
or mechanical including photocopy recording or any other
retrieval system , without written permission of the rights owner .
Published by Rabie Publishing House - Aleppo , Syria
P.O.Box : 7361 Tel : +963 21 2640151 Fax : 2640153
E-mail : rabie@rabie-pub.com WWW.rabie-pub.com

